بسم الله الرحمن الرحيم

مراتب الجزاء يوم القيامة

على ما جاءت به نصوص القرآن، والسنن الثابتة
عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

لأبي عبد الله

محمد بن أبي نصر الحميدي الظاهري

رحمه الله

بتحقيق

أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري

ومعه تعريف بكتاب:

"تحرير المقال: في موازنة الأعمال، وحكم غير المكلفين: في العقبى، والمآل"

للقاضي أبي طالب عقيل بن عطية القضاعي المالكي

رحمه الله

توطئة

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على رسول الله محمد ، وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليما كثيراً .

أما بعد ، فإن بعض المسائل الغيبية : يجب أن نجتهد فيها ونفهمها ، كما نجتهد في مسائل الفقه ، إذا كان قد ورد بهذه المسائل الغيبية نصوص ، وكانت هذه النصوص من المحكم ، ولم تكن من المتشابه الذي نهينا عن قفوه .

ومن هذه المسائل الغيبية : مسألة « القانون الشرعي لموازنة الله لأعمال عباده يوم القيامة » . وهذه المسألة مهمة جداً ؛ لأن أغلب المؤمنين ـ في كل زمان ومكان ـ من العصاة ، والعصمة ليست لغير الأنبياء .

ولما كان أغلب المؤمنين من العصاة ، كان أغلبهم مصرين على الصغائر ، متورطين في بعض الكبائر . والدافع لهذا الإصرار : التذبذب بين عقيدتين :

١ ـ عقيدة متكلة على رحمة الله .

٢ ـ وعقيدة يائسة من رحمته .

فإذا ما أشيع بين المسلمين قانونُ الله الشرعيّ في موازنة الأعمال ، فإن عصاة المؤمنين يعيشون في طريق وسط ، « بين طمع في رحمة الله ، وخوف من نقمته » ، ومن عاش هكذا فسيكون أبعد عن الاصرار ، وعن اليأسِ من جدوى أقل ما يعمله تقرباً إلى الله ، وسيكون من المسارعين إلى الخيرات .

وكتابنا هذا خاص بالموازنة ، وقد ألفه الإمام : أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي الظاهري الميورقي الأندلسي ، ثم البغدادي ، المتوفى سنة ٤٨٨ هـ .

التعريف بالكتاب

في تصفحي للديباج المذهب لابن فرحون : رأيته يذكر أن للقاضي « أبي طالب عقيل بن عطية القضاعي المالكي » المتوفى سنة ٦٠٨ هـ : رداً على الحميدي ، وعلى شيخه أبي محمد بن حزم ، وأنه أحسن وأجاد في هذا الرد .

وبعد سنوات : كتب إليَّ علامة المغرب الشيخ محمد إبراهيم الكتاني يقول : إن هذا الكتاب توجد منه نسخة خطية بالمغرب : بمكتبة جلالة الملك الحسن ، وأن اسمه :

« **تحرير المقال : في موازنة الأعمال ، وحكم غير المكلفين : في العقبى ، والمآل** » .

فكاتبت فضيلته منذ سنة ونيف : أطلب صورة من هذا الكتاب ، وكاتبت فضيلة الشيخ عبد الوهاب بن منصور مؤرخ جلالة الملك الحسن ، وكاتبت غيرهما من علماء المغرب : في طلب صورة من هذه النسخة الفريدة ، الوحيدة في خزانات العالم ، ولم أتلق رداً .

وكنت ـ بين الفينة والفينة ـ أنوي أن أشدَّ الرحال إلى رباط الفتح بالمغرب .

وفي رحلتي إلى القاهرة في شهر محرم من هذا العام : أخبرني الدكتور محمود الطناحي بأن هذا الكتاب صورته البعثة المنتدبة إلى المغرب من معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، ولقد بذل مدير المعهد والدنا الشيخ قاسم الخطاط كل مساعيه الحميدة ؛ لحصولي على نسخة من هذا الكتاب ، وغيره من نفائس المخطوطات . . وكذلك فعل الدكتور عبد الفتاح الحلو ـ حفظه الله .

وكتاب القاضي أبي طالب : يقع في ١٥٦ ورقة ـ أي ٣١٢ صفحة ، وكل صفحة ٢٣ سطراً ، بمقاس ٥/ ٢٠ × ٢٧ سم . ويبدو من تصفحي للفهارس أنها النسخة الوحيدة في خزانات العالم ، ولم تطبع بعد ؛ وقد تم تصويرها من الخزانة الملكية بالرباط ، وهي بخط مغربي : فنقطة القاف واحدة ، ونقطة الفاء من تحت ، والطاء شبيهة بالكاف . . الخ ، وبعض الصفحات مكتوب بخط حديث ، وثمة صفحات مرقمة بخط حديث أيضا .

والناسخ : « محمد بن عبد الرحمن بن يحيى » ، وقد فرغ من المقابلة على أصل المؤلف في ١١/ ٦/ ٦٠٣ هـ .

وعلى الأصل : ثلاث سماعات على المؤلف في أثناء سنة ٦٠٣ هـ وآخرها . وفي بعض صفحات الأصل تداخل بين

السطور (اهتزاز) تصعب به القراءة تارة ، وتستحيل تارة .

وفي بعض صفحــات الأصــل كثـرة : من البياض ، أو الطمس .

والكتاب من جزأين :

١ ـ الجزء الأول : ردّ على الحميدي ، وينتهي بالسطور الأربعة الأولى من ورقة ٨٠/ أ

٢ ـ الجــزء الثانــي : استــدراك على الحميدي : في أشياء لم يذكرها .

ويجب ملاحظة :

آ ـ أن ورقة ١٩/ب : هي تتمة ورقة ١٨/ أ

ب ـ أن ورقة ١٨/ب : هي تتمة ورقة ١٩/ أ

جـ ـ أن أول سطر من ورقة ١٩/ أ تكملة لـ ١٨/ب

ولا أدري : كيف وقع هذا الخطأ في النسخ والترقيم ؟ .

ويهم المعنيين بابن حزم ـ من هذا الكتاب ـ :

١ ـ استخلاص المتن من كلام الحميدي ، الذي كان في الأصل من تقرير ابن حزم .

٢ ـ تلخيص ردّ أبي طالب على الحميدي .

٣ ـ استخراج رد أبي طالب على ابن حزم في تفسير قوله تعالى :

﴿فأمّا من أوتي كتابه بيمينه . . الخ﴾ .

ويبدأ من السطرين الأخيرين من ورقة ٢٤/ب وينتهي بنهاية ورقة ٣٨ .

ولقد أحسن أبو طالب صنعاً : عندما فصل كلام الحميدي ، وميَّزه .

قال أبو طالب ـ رحمه الله ـ : « وقد رأينا : أن نفصل بين كلامنا وكلامه ، بحيث يمتاز أحدهما من الآخر ، وذلك بأن ننقل كلامه بلفظه ، فإذا كمل أردفنا عليه فصلاً أو فصولاً متتابعة من كلامنا . . . فإذا كمل ذلك رجعنا إلى نقل لفظه أيضاً . . . الخ .

ولم نترك من كلام الحميدي ـ في كتابه المذكور ـ شيئاً ، بل سقناه (على ما هو عليه) ، بحيث لو شاء ناقل أن ينقل كتابه من المواضع التي ذكرناه فيها حتى يُخْتَزلَ برأسه ـ عن مجموع هذا الكتاب ـ : أمكنه ذلك » ا هـ .

قال أبو عبد الرحمن : هذا عن التعريف بنسخة الكتاب الخطية :

أما عن موضوعه واسمه : فقد قال أبو طالب : « أما بعد : فإن أحد الطلبة ـ رعاهم الله ـ : عرض علي كتاباً صنفه : أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي ـ رحمه الله ـ : في الموازنة يوم القيامة ، وتقسيم أهلها ، وترتيب الجزاء : من الثواب ، والعقاب عليها . وكان هذا الطالب ـ المشار إليه ـ معجباً بذلك الكتاب ، ومستحسناً لأغراضه ، ومولعاً بتقسيمه ، وزاده كلفاً به : كون أبي محمد علي بن أحمد بن حزم ـ رحمه الله ـ : قد رواه

عن مؤلفه ـ كذلك ذكر أبو محمد في « برنامجه » ، وذلك أنه قال : « كتاب جمعه صاحبنا » : أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي في مراتب الجزاء يوم القيامة :

على ما جاءت به نصوص القرآن والسنن الثابتة عن رسول الله ـ ﷺ ـ دقق فيه ، وقَرْطَسَ ما شاء ، أخذته عنه لإحسانه فيه ، وجودة نظره في تقسيمه ، يكون بضع عشرة ورقة صغاراً » اهـ .

ولم يذكر أبو طالب اسم كتاب الحميدي ، وإنما ذكر عنوانه بالوصف .

قال أبو عبد الرحمن : وقد كتب إلي علامة أهل المغرب شيخنا محمد ابراهيم الكتاني يقول : إن عنوان كتاب الحميدي :

« موازنة الأعمال في حكم غير المكلفين في العقبى والمآل » ، ولعل فضيلته : اقتطع هذا العنوان من عنوان كتاب أبي طالب ، وعندي : أن هذا العنوان لا ينطبق على موضوع كتاب الحميدي ، لأن هذا عن « غير المكلفين » وذاك عن « المكلفين » .

لهذا أثبت عنوان الكتاب بالوصف الذي ذكره أبو محمد في برنامجه .

والحميدي : يذكر ـ في مقدمة كتابه ـ : أن أصل كتابه هذا من تنبيه شيخه أبي محمد مشافهة في مجلسه .

قال أبو عبد الرحمن : مشافهة الشيخ في مجلسه قد تكون درساً يمليه ، وقد تكون كتاباً له يرويه عنه تلاميذه . وعلى هذا فربما كان الأصل : هو كتاب أبي محمد : « مراتب أهل الحقائق في دار القرار » .

قال الشيخ الكتاني : إنها في ثلاث ورقات كتبها الحافظ الحميدي من تقرير شيخه ابن حزم ، صورها الأستاد محمد بن تاويت عن إحدى مكتبات تركيا .

كما ناقش أبو محمد هذا الموضوع مفرقاً في الجزء الثالث والرابع من الفصل . وناقشه في كتابه « الأصول والفروع » ؛ وفي رسائل ابن حزم ضمن مخطوطة « شهيد علي » مسألة عن : « حكم من قال : إن أهل الشقاء معذبون إلى يوم الدين » .

ويرى أبو طالب : أن الحميدي ـ وإن لم يتخلص في موازنته ـ : لم يسبق إليها [ورقة ١٥٦/ أ ـ ب] .

ويقول أبو طالب : ولو سلم من الانتقاد : لكان ـ مع صغر حجمه ـ كتاباً نبيلاً .

ويقول أيضاً : « ألم ابن حزم في « الفصل » بأشياء مما ذكرها الحميدي ، ولكن الحميدي زاد عليها بالتتبع لها باضافة ما يشاكلها : حتى استحقها على ابن حزم [ورقة ١٥٦/ ب] .

ويرى أبو طالب : أن الحميدي أصابته غفلة في هذا الكتاب ،

وكذلك أصابت الغفلة أبا محمد بن حزم ـ في استحسانه له ، وتصويبه لتقاسيمه ـ وما ذاك منه إلا لأن كثيراً من مضمنه فهو مذهبه ، فغاب عنه ما وراء ذلك : مما لو أمعن النظر فيه لم يخف عليه . [ورقة ٢/ ب] وقال : « ولغيبة مواضع الانتقاد فيه عن أبي محمد ، وموافقته له فيما وافقه فيه : استحسن كتابه ، ورواه عنه » . [ورقة ١٥٦/ ب][1]

ويرى أبو طالب : أن قول الحميدي في موازنة الكفار ، واستدلاله بالآية ، وتأويله : ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ كل ذلك حسن ، وقد قاله أبو محمد في كتابه « الفصل » : فإما أن يكون أخذه من قول الحميدي ـ في هذا الكتاب ـ ، لكونه رواه ، واستحسنه ، وإما أن يكون الحميدي أخذه من كتاب الفصل ، ونقله إلى كتابه » . [ورقة ٦٢/ أ ـ ب] .

قال أبو عبد الرحمن : أبو محمد ألف « الفصل » قبل عام ٤٣٩ هـ .

ويترجح عندي ـ الآن ـ : أنه ألفه قبل ذلك بسنين ؛ والحميدي : اتصل بمجالس أبي محمد بميورقة منذ عام ٤٣٩ هـ ولازمه إلى سنة ٤٤٨ ؛ حيث رحل الحميدي للمشرق ـ من جراء المضايقة التي حصلت للحزميين بالأندلس ـ فنشر كتب ابن حزم

---

(١) وأشار إلى هذا أيضا ورقة ٣٨/ب . وفيه زيادة مهمة عن سبب ترك الحميدي لمذهب ابن حزم في تفسير آية .

في المشرق ، ولكنه لم يتظاهر بمذهبه الظاهري .

قال أبو عبد الرحمن : وقد ألف الحميدي هذه الرسالة في صلف الشباب ، وقبل أن ينضج علمه ، ويتخصص في الحديث ، وكان ذلك في عنفوان إعجابه بشيخه ـ وشيخنا ـ الإمام ابن حزم ؛ ولهذا كان أسلوبه نسخة من أسلوب ابن حزم ، وهكذا كان جدله ، وتأصيله ، وتفريعه .

ستجد في رسالة الحميدي : هذه العبارات : « جنس ـ نوع ـ فروع ـ جمة ـ البرهان ـ ما ينتجه البرهان ـ ضرورة ـ ولا بد ـ ارتفاع النقيض ـ من المحال ـ يقيناً ـ فلم يبق ـ لا يصح أصلاً ـ إذ لا شك ـ وإذ ذلك كذلك ـ ثم نظرنا ـ صرف الآية عن ظاهرها ، ومقتضى لفظها بالدعوى ـ ضرورة المشاهدة . . الخ » .

وهذه عبارات أبي محمد التي ألفتها أسماعنا ، وإنها لتهزنا كما يهزنا الشعر العاطفي !! .

كلام أبي طالب: عن الحميدي وابن حزم

يرى أبو طالب أن رده على الحميدي ردٌّ على ابن حزم أصلاً ، وردٌّ على الحميدي بالتبع ؛ لأن ابن حزم من أهل النظر في الجملة ، وأما الحميدي : فإنما هو من أصحاب الحديث ، وإن كان من أهل التحذق فيهم [الورقة ٣/ ب] .

وقال عن أبي محمد : « وهذا الرجل قد غلت فيه طائفتان : إحداهما : تعظمه تعظيماً مفرطاً ؛ بحيث تقلده في جميع أقواله ، ولا ترى مخالفته في شيء من مذهبه ؛ وإذا ظهر لها في كلامه الخطأ البين ، والوهم الصراح ، لم تقبله ، وأحالت بالوهم والخطأ على من يتعاطى الردَّ عليه ، أو على أنفسها بالعجز عن الانتصار لذلك القول المردود عليه .

والطائفة الثانية ؛ تزري عليه ، وتحط من قدره ؛ حتى تعتقد : أن لا حسنة عنده ، فإذا ظهر لها ما في قوله من الجودة ، وبُيِّن لها صحة ما ذهب إليه في أمر ما مما يتكلم عليه ، أو يتمذهب به ، لم تقبله - أيضا - واعتقدت في من يبين ذلك ويتكلم فيه : أنه على مذهبه الذي ينتحله . وقد يكون في هذه الطائفة : من لا يَفهم قولَه ، ولا يدري معناه ! . . لكن يكرهه تقليداً ، ويستصوبُ قولَ من يردّ عليه - في الجملة - . . وكلتا الطائفتين مخطئة فيما توهمته عليه : من الإحسان المجرد ، أو من الإساءة المجردة . بل هو واحد من العلماء ، ومين مَن يقصد الحق - عند نفسه - فيما يراه ، ويؤثر العدل فيما يظنه ويتحراه ، فتارة يخطىء ، وتارة يصيب ، فإذا أصاب فقوله سامق جداً ! ، وإذا أخطأ فقوله نازل جداً ! ؛ لأن أكثر أقواله إنما تأخذ بالطرفين . وغيره من العلماء قد يكون صوابه قريباً من خطئه . أعني أنه إذا أصاب : يكون صوابه قريبَ المرام ، ليس فيه ذلك الغموض ، وإذا أخطأ : لم يكن في ذلك الخطأ شذوذ ، ولا كبير تعسف . وهذا الذي قلناه :

هو الإنصاف في جانب أبي محمد بن حزم ـ رحمه الله ـ والاعتدال الذي ينبغي أن يعتقد فيه ؛

فإنا إنما ذكرنا الواجب في حقه ، كان له ، أو عليه » اهـ [ورقة ٢٥/ب ـ ٢٦/أ]

وقال أبو طالب عن « منذر بن سعيد » : « وهو رجل ظاهري مثل ابن حزم : إلا أنه دونه في الشذوذ » [ورقة ٢٦/ب] .

ملخص تعقب أبي طالب للحميدي

ذكر الحميدي : أن ولد آدم ـ عليه السلام ـ ثلاث طبقات :

١ ـ المقربون ، وهم النبيون والشهداء فقط ، ويتميزون : بأن أرواحهم في الجنة منذ خروجها من أجسامهم في الدنيا .

٢ ـ أصحاب اليمين ، أو الميمنة ، وهم جميع المؤمنين : محسنهم ، ومسيئهم . ويتميزون : بأنهم ليسوا الآن في الجنة .

٣ ـ أصحاب الشمال ، وهم الكفار .

وقد جعل الحميدي أصحاب هذه الطبقة قبل اصحاب اليمين ـ في سياق كلامه ـ ؛ لأن أصحاب اليمين يتفرعون إلى

أقسام كثيرة ؛ فأراد أن يجعلهم في النهاية . [راجع ورقة ١٧/ ب] .

ويعترض أبو طالب على ذلك بما يلي :

١ ـ أن كتاب الحميدي عن مراتب الجزاء يوم القيامة عموماً ؛ فتعم « الجن » ؛ لأنهم مكلفون ، فلم لم يذكرهم ؟ .

٢ ـ أن تقسيم الحميدي خاص بالمكلفين من بني آدم ؛ وعموم الموازنة يتناول : أهل الفترة ، ومن لم تبلغه الدعوة ، والمجانين ، وأطفال المؤمنين ، وأطفال الكفار ، فلم لم يذكرهم ؟ .

وهؤلاء ، مع الجن : أفرد لهم أبو طالب الجزء الثاني من كتابه ، وتطرق إلى أحكام العرب وأحوالهم في جاهليتهم .

٣ ـ معتمد الحميدي في التفريق بين المقربين ، وأصحاب اليمين : أن المقربين في الجنة ـ من الآن ـ بخلاف غيرهم .

آ ـ لأن حجته حديث ابن مسعود ـ في صحيح مسلم ـ وهو موقوف .

ب ـ وعلى فرض أنه مرفوع : فلا يدل على دوامهم في الجنة في الدنيا ؛ إذ نص الحديث : « أن أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة حيث شاءت إلى تلك القناديل » .

جـ ـ ثم إن الحديث في « الشهداء » ولا يدل على الرسل والأنبياء : إلا بقياس الأولوية .

د ـ حديث الإسراء لا يدل على أنهم في الجنة ـ من الآن ـ إلا على مذهب الحميدي : ان الجنة هي السموات .
وقد أبطل هذا المذهب بأدلة جبارة ، والزامات لا مخلص منها .

٤ ـ أنه حصر المقربين في النبيين والشهداء فقط ، مع أنه يشمل غيرهم ، وعلى سبيل المثال : « الصديقون » فهم أفضل من الشهداء غير الصديقين ، وأبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أفضل من جميع شهداء الصحابة (رضي الله عنهم)

٥ ـ القسمة الصحيحة هكذا :
المكلفون من بني آدم : قسمان :
١ ـ أصحاب اليمين
٢ ـ أصحاب الشمال
وأصحاب اليمين قسمان :
آ ـ مقربون
ب ـ غير مقربين

وليس هذا التمايز من ناحية الأسبقية إلى دخول الجنة في الدنيا .
بل ذلك عن حالهم يوم القيامة : كما هو سياق سورة الواقعة .

٦ ـ أطال الردَّ على الحميدي في تقسيم الموازنة بين : قليل الخير

قليل الشر مع كثير الخير كثير الشر ، وقليل الخير . . إلى آخر تقسيماته . ونحن نقول :

هذه التقسيمات محض الرأي الذي لا ينسجم مع أصول الظاهر ؛ لأنه لم يوجبه نص صريح ، ولا دليل منتج ، ولا ضرورة عقل . إنما الموازنة ـ كما جاء النص ـ :

آ ـ بين الفرد وعمله

ب ـ وبين الفرد والفرد في المظالم .

٧ ـ وينحو أبو طالب في جدله منحى إلزام المخالف على أصل مذهبه ، فهو

آ ـ يحاسب الحميدي على قَصْر المقربين على الأنبياء والشهداء ، مع أنه لم يشر في ذلك الى توقيف ، ولم يسبقه إلى ذلك غير ابن حزم .

ب ـ ويبقى دلالة الآية : « ولا تحسبن الذين قتلوا . . الآية » على دخول الجنة ، ويقف عند دلالة يرزقون ومحتملاتها .

جـ ـ وينفي دلالة حديث ابن مسعود على الدوام

د ـ ويشير إلى أنه موقوف .

رأينا في مسألة الموازنة

بحث هذه المسألة لا ينافي النصوص الواردة بأن عصاة المؤمنين تحت المشيئة .

بل نقول : إن الله أخبرنا عن مشيئته سبحانه ـ بنصوص أخرى ـ وهو أنه لا يخلد مؤمنا في النار ، وقول ربنا حق صادق لا خلف فيه ، وكلما اتسقت هذه الموازنة مع النصوص الشرعية : فلا محذور في ذلك ، بل هو من واجب العلماء المجتهدين ؛ لأنه بيان لمفهومات النصوص الشرعية .

وحبذا لو ذكر الحميدي النصوص الدالة : على أن الله ـ وإن لم يخلد المؤمن العاصي في النار إلى الأبد ـ : قد يعذبه أحقابا كثيرة لا يعلمها إلا الله ، وذلك ضروري في هذا الموقف ؛ حتى لا يتكل العصاة ، ويستسهلوا العذاب غير المؤبد .

ونرجو من الله العلي العظيم الكريم ، أن يسامحنا عما مضى ، ويعصمنا فيما بقي ، آمين يا رب العالمين .

وكتبه لكم :

أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري

ـ عفا الله عنه ـ

المقدمة

قال أبو عبد الله الحميدي :

الحمد لله على ما وهب من فضله ، وخص من جميل صنعه وطوله ، وصلى الله على محمد : عبده ورسوله ، وسلم تسليماً .

أما بعد ، قسم الله لك من الخير أكمله قسماً ، وأوفره نصيباً ، وزادك من آلائه ، وأوتر عليك من نعمائه ، فإنك أشرت إليَّ فيما جرى في مجلس شيخنا أبي محمد [يعني ابن حزم][1] ـ أدام الله توفيقه ـ من مسألة « الموازنة وتقسيم طباق أهلها »، ورغبت : أن أقيّدها لك بدقتها ، وأثبتها بحقائقها وكثرةِ أقسامها؛ لنبوٍّ أكثر الأفهام عنها ، دون تغيير ، ولا إثبات .

وأنا إن شاء الله ـ واقفٌ عندما أشرتَ به ، وآخذٌ فيما رغبت فيه ، مستوعباً لكلٍّ ما توجبه القسمة ، وتقتضيه الرتبة : مما تنتَّج لي ، وظهر إليَّ ،بعد حسبما أفهمنيه الله تعالى ، وأقدرني[2] عليه ، وإن كان أصله ما نبه عليه شيخنا أبو محمد ـ أعزه الله ـ في ذلك المجلس ، فلا غرو ، فالكلمة الواحدة : تقتضي معاني كثيرة ،

---

(١) هكذا في الأصل ، ولعلها زيادة من القاضي أبي طالب .

(٢) في الأصل : وأقدر نيه عليه ! .

والجنس المفرد : يعم أنواعاً عظيمة ، والأصـل الواحـد : ينتـج فروعاً جمة ، وستقف ـ في كل ذلك ـ على البرهان فيه على نحو ما التزمناه : عقداً ، وقولاً ، ولله ـ تعالى ـ الحمد : بدْءاً ، وعوداً ، وبه ـ عز وجل ـ نستعين ، لا إله إلا هو .

وهذا حين نأخذ في سبيل ذلك ، ونبين حقيقة مذهبنـا فيه ، وظهورَ برهاننا له ـ إن شاء الله ـ فنقول ـ وبالله التوفيق ـ

مراتب المكلفين

الطبقة الاولى

قد صحّ النصّ - على ما نُبَيِّنُ بعد هذا - أن جميع ولد آدم - عليه السلام - عند الله (تعالى) : على ثلاث طبقات :

الأولى هم المقربون ، وهم النبيون - عليهم السلام - ، والشهداء فقط ؛ وهؤلاء ناهضةٌ أرواحهم إلى الجنة إثر خروجها من أجسامهم عن هذا العالم الذي نحن فيه ؛ وبرهان ذلك : أنه لم يختلف مسلمان في أن الأنبياء - الآن - في الجنة ، وكذلك الشهداء . وقد صحَّ هذا بالنص ؛ فأخبر[3] رسول الله - ﷺ - : أنه رأى الأنبياء (عليهم السلام) في ليلة الاسراء :

إذ آدم : في سماء الدنيا .
ويحيى ، وعيسى - عليهما السلام - : في الثانية .
ويوسف (عليه السلام) : في الثالثة .
وإدريس - عليه السلام : في الرابعة .
وهارون[4] (عليه السلام) : في الخامسة

---

(٣) في الأصل : وأخبر . . وقد اخترت إثباتها بالفاء ؛ لأن الكلام في سياق التعليل والتفريع ، والواو لا تأتي لذينك .

(٤) من هنا تنتهي ورقة ٤/أ

وموسى ، وابراهيم - عليهما السلام - : في السادسة ، والسابعة .

وبهذا قطعنا : على أن السماوات هي الجنات ضرورةً ؛ لصحة الإجماع : على أن أرواحهم في الجنة من الآن ؛ ومن المحال أن يكونوا في مكانين مختلفين : في وقت واحد ! .

وكذلك جاء النص - أيضا - في الشهداء : من طريق ابن مسعود ، وغيره . قال الله - تعالى - : ﴿ ولا تحسبنَّ الذين قُتِلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم ﴾(٥) .

وإذا صح أن الشهداء في الجنة : فمن المحال أن يكون أحد : في أفضل مرتبة ، وأعلى محلة من الأنبياء - عليهم السلام - فصح أنهم متقدمون في هذه المنزلة ، ومستأهلون لها ، لا يجوز غير ذلك . [الورقة ٤/ب] .

الطبقة الثانية

والطبقة الثانية : أصحاب الشمال ، وهم الكفار يقيناً بالنص ؛ لقوله - تعالى - في سورة الواقعة : ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال • في سموم وحميم • وظل من يحموم • لا بارد

---

(٥) آل عمران/ ١٧٠

ولا كريم • إنهم كانوا قبل ذلك مترفين • وكانوا يصرون على الحنث العظيم • وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون • أو أباؤنا الأولون • قل إن الأولين والآخرين • لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم • ثم إنكم أيها الضالون المكذبون •﴾(٦) .

فنص - تعالى - [على] : أنهم لا يؤمنون بالبعث ، وأنهم مكذبون . والمكذب : كافر بلا تأويل .

وكذلك قال - عز وجل - في آخر السورة (إذ ذكر التقسيم) :

﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين﴾(٧) .

وأيضا : فإن الله - تعالى - خاطب الجميع ، فقال : ﴿إذا رجت الارض رجاً • وبست الجبال بسّاً • فكانت هباء منبثاً • وكنتم أزواجاً ثلاثة • فأصحاب الميمنة • ما أصحاب الميمنة • وأصحاب المشأمة • ما أصحاب المشأمة • والسابقون السابقون • أولئك المقربون • في جنات النعيم • ثلة من الأولين • وقليل من الآخرين •﴾(٨) .

وليس الكفار - بيقين - من السابقين المقربين ، ولاهم (بلا شك) من أصحاب اليمين : وهم أصحاب الميمنة .

فلم يبق إلا ما قلنا ضرورة .

---

(٦) الواقعة/ من بداية آية ٤٢ إلى نهاية آية ٥٢

(٧) الواقعة/ ٩٣

(٨) الواقعة/ من بداية آية ٥ إلى نهاية آية ١٥

وقال - عز ، وجل - أيضا : ﴿ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة • أولئك أصحاب الميمنة • والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة • عليهم نار مؤصدة﴾[9] .

وهذا نص جلي بما قلنا : من أن الكفار هم أصحاب المشأمة ، وهم أصحاب الشمال : بنص القرآن[10] .

الطبقة الثالثة

والطبقة الثالثة : هم أصحاب اليمين : وهم أصحاب الميمنة ، وهم جميع المؤمنين : محسنهم ، ومسيئهم ، حاشا من ذكرنامن الأنبياء والشهداء : لما قدّمنا قبلُ .

وأيضا : فإنه قد صح عنه - عليه السلام - أنه رأى - عن يمين آدم ، وشماله - ذريّتَهُ ، وأن أهل السعادة عن يمين آدم (عليه السلام) .

والإجماع قد صحّ بما جاء به النصُّ من أنَّ مَن سوى الأنبياءِ ، والشهداء فليسوا الآن في الجنة .

فلم يجز أن يخرج عن هذا الموضع ، الذي هو[11] عن يمين

---

(٩) سورة البلد من بداية آية ١٨ إلى آخر السورة

(١٠) إلى هنا من ورقة ١٩/أ

(١١) إلى هنا من ورقة ١٧/ب

آدم ـ ـ عليه السلام ـ أحد ، فيقال : إنه في الجنة من الآن ، إلا من جاء النص باستثنائه : وهم الأنبياء ، والشهداء فقط .
وسائرهم منازل عن يمين آدم ـ عليه السلام ـ حيث رآهم رسول الله (ﷺ) .

وهذه قسمة ضرورية .

وإذ قد صح أن السابقين المقربين ، مع الشهداء ـ بعد الأنبياء (عليهم السلام) ـ ، وأن أصحاب المشأمة هم الكفار : فلم يبق إلا الطبقة الثالثة ، فهي لهم بيقين .[12] .

برهان آخر على تقسيم المكلفين الى ثلاث طبقات

ومن البرهان ـ أيضا ـ على ما قلناه : أن الله تعالى رتبهم على ثلاث طبقات :

السابقون ، المقربون (في جنات النعيم) .
وأصحاب اليمين .
وأصحاب المشأمة .

فلو كان أصحاب اليمين في الجنة ـ بدياً من الآن ـ لكانوا طبقتين فقط، وكذلك لو كان الأنبياء والشهداء مع سائر المؤمنين في محلهم حيث هم الآن لكانوا

(١٢) إلى هنا من ورقة ١٨/أ

طبقتين أيضا ، ولكانت الثالثة ساقطة ، وهذا باطل فصحَّ ما قلناه : من الفرق بين المقربين وبين أصحاب اليمين وتناظرت النصوص كلها ، وتبين أن أصحاب اليمين - وإن كانوا قد ذكر الله : أنهم: ﴿في سدر مخضود • وطلح منضود • وظل ممدود • وماء مسكوب • وفاكهة كثيرة • لا مقطوعة ولا ممنوعة • وفرش مرفوعة • إنا أنشأناهن إنشاء • فجعلناهن أبكاراً • عرباً أترابا • لأصحاب اليمين • ثلة من الأولين • وثلة من الآخرين •﴾[13] - :

فإنما هذا (بنص الآية) : على ما يصيرون إليه ، بعد الحساب ، يوم القيامة ، بلا شك ؛ لما ذكرنا .

يؤيد[15] هذا : قول الله - عز ، وجل - في آخر السورة (نفسها) : ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم • وأنتم حينئذ تنظرون • ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون • فلولا إن كنتم غير مدينين • ترجعونها إن كنتم صادقين • فأما إن كان من المقربين • فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين • فسلام لك من أصحاب اليمين • وأما إن كان من المكذبين الضالين • فنزل من حميم • وتصلية جحيم • إن هذا لهو حق اليقين • فسبح باسم ربك العظيم •﴾[14] .

فنص - تعالى - : على أن هذه حالهم .

وقسمهم ، فجعلهم - أيضا - ثلاث طبقات :

---

(١٣) سورة الواقعة من بداية آية ٢٩ إلى نهاية آية ٤١

(١٤) سورة الواقعة من آية ٨٤ إلى نهاية آية ٩٧ آخر السورة

(١٥) انتهى من ورقة ٢٢/أ

أولها : المقربون ، المعجل لهم الجنة والنعيم .
وثانيها : أصحاب اليمين : الذين لهم السلام معجلاً فقط .
وثالثها : المكذبون الضالون .
وهذا بين[١٦] .

عود إلى المؤمنين المسيئين من أهل الطبقة الثالثة

ثم قد صح ـ بالنص والإجماع ـ : أن الكفار مخلدون في النار ، غير خارجين منها أبداً بعد دخولهم فيها يوم القيامة .

وصحت أيضا ـ بنص القرآن ـ الموازنة ، وأنه لا يجزى أحد إلا ما كسب .

وصح عن النبي ﷺ : أنه ذكر من يخرج من النار على مراتب ، وأنه يقدم من في قلبه مثقال شعيرة ، ثم مثقال ابرة ، ثم مثقال كذا ـ على حسب ما ذكر من المقادير ـ مع قول لا إله إلا الله . فلم يبق : إلا أنهم المؤمنون المسيئون : بيقين ، لا شك فيه .

ونحن ذاكرون نص الحديث ؛ إذ الغرض تحقيق ما فيه من المقادير ، وليكون أقرب إلى فهم ما تعلق من هذه المسألة به ؛ لكونه حاضراً [معها][١٧] ، متصلاً بها ـ إن شاء الله (تعالى) ـ ،

---

(١٦) إلى هنا من ورقة ٢٢/ب
(١٧) هكذا تبدو لي صورة هذه الكلمة [illegible]

فنقول - وبالله التوفيق - : [إنه قد][18] روى الثقتان : سعيد بن أبي عروبة ، وهشام (صاحب الدستوائي) ، كلاهما : عن قتادة : عن أنس بن مالك : أن النبي - ﷺ - قال :

« يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن بُرَّةً ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن ذَرَّةً » .

هذا نص الحديث : رويناه من طريق مسلم بن الحجاج في الصحيح ، ورويناه من طريق حماد بن زيد : عن معبد بن هلال العنزي : قال : « انطلقنا إلى أنس بن مالك ، وتشفعنا بثابت ، فانتهينا إليه - وهو يصلي الضحى - فاستأذن لنا ثابت ، فدخلنا عليه ، فأجلس ثابتاً معه على سريره ، وقال له : يا أبا حمزة ، إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تحدثهم حديث الشفاعة ، فقال : حدثنا محمد رسول الله - ﷺ - قال : إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض ، فيأتون آدم ، فيقولون له : اشفع لنا إلى ربك ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بابراهيم ؛ فإنه خليل الله ؛ وذكر الحديث : إلى قوله - عليه السلام - فأقول : أمتي ، أمتي ؟! . فيقال : انطلق : فمن كان مثقال حبة من برة ، أو شعيرة - من إيمان - : فأخرجه منها .

(18) هكذا بدت لي صورة هاتين الكلمتين .

فأنطلق ، فأفعل ، ثم أرجع إلى ربي ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخرُّ ساجداً ؛ فيقال لي : يا محمد[19] : ارفع رأسك ، وقل يُسْمَع ، وسَلْ تُعْطَه ، واشفع تُشَفَّعْ ، فأقول : أمتي ، أمتي ، فيقال لي : انطلق ، فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، فأخرجه منها . فانطلق فأفعل ، ثم أعود إلى ربي ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجداً ، فيقال لي : يا محمد : ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع . فأقول : يا رب : أمتي ، أمتي ، فيقال لي : انطلق ، فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان : فأخرجه من النار ؛ فانطلق ، فأفعل .

ثم قال : إنهم خرجوا من عند أَنَس ، فأتوا الحسن بن أبي الحسن البصري ، فزادهم في هذا الحديث : أن أنساً حدثهم به عن النبي -ﷺ ، وفيه : ثم أرجع إلى ربي في الرابعة ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجداً . فيقال لي : يا محمد : ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع . فأقول : يا رب : ائذن لي : في من قال : لا إله إلا الله ؛ قال : ليس ذلك لك ، أو قال : ليس ذلك إليك ، ولكن وعزتي وكبريائي ، لأخرجن من النار من قال : لا إله إلا الله ؛ وذكر باقي الخبر ، وقد جاء من طريق ثابتة مجيء التواتر[20] .

---

(١٩) إلى هنا من ورة ٣٩/أ

(٢٠) إلى هنا من ورقة ٣٩/ب

ففي هذا بيان المقادير التي جعلها الله ـ تعالى ـ سبباً لخروجهم من النار بالشفاعة ـ على حسب مالهم منها ـ تفضلاً من الله ـ عز وجل ـ إذ جعل ما اكتسبوا من الخير وعملوه ، مما قد كان الله تعالى هو الموفق له ، والمعين عليه ، والمهيء لآلات الاكتساب له ، سبيلاً إلى الفوز والنجاة ؛ تغمداً منه برحمته لهم كما شاء (لا إله إلا هو) .

وفيه أن تلك المقادير المذكورة : من مثقال برة ، وذرة ، إنما هي مما سوى الإيمان الذي هو قول : لا إله إلا الله ، لكن من سائر الأعمال ، التي تسمى إيماناً ـ أيضا ـ ؛ لقوله تعالى (في من قال : لا إله إلا الله ، وليس له غيرها) : ليس ذلك لك ، وأبانهم عن أهل تلك المقادير ؛ لتوحده ـ عز وجل ـ بإخراجهم من النار وهذا بينّ ، والحمد لله .

وهذا ـ أيضا ـ يبين أن الذين[21] توحد الله ـ عز وجل ـ بإخراجهم من النار : في من[22] قال : لا إله إلا الله ، ولم يعمل خيراً قط : إنما هو من قالها مرة واحدة فقط ، مصدقاً ، ومات على ذلك ، لأن قول : لا إله إلا الله حسنة ، فإذا كررها : حصلت له حسنة أخرى ، فهو أزيد خيراً من مَن لم يقلها إلا مرة واحدة فقط .

ونص الخبر : يدل على أن الذين توحد الله ـ تعالى ـ

---

(٢١) في الأصل الذي

(٢٢) إلى هنا من ورقة ٤٢/ب

بإخراجهم برحمته ، لا بالشفاعة ، إنما هم من ليس (في المؤمنين) أحدٌ أقل خيراً منهم .

هذا نص الخبر المذكور ، وغيره من الآثار الثابتة عن رسول الله ، الواردة في هذا الباب[٢٣] .

تقسيم أصحاب الطبقة الثالثة ، وهم أصحاب الميمنة

ثم إنا وجدنا أصحاب اليمين ـ من جميع المؤمنين ـ وهم الطبقة الثالثة[٢٤] : من الطبقات التي ذكرنا ، أيضا : ينقسمون (في الموازنة) : أقساماً ثلاثة :

إما متساو خيره ، وشره .

وإما من رجحت حسناته على سيئاته ، فهذا فائز (بنص القرآن) .

وإما من رجحت سيئاته ـ مع ما معه من الكبائر ـ على حسناته ، فهذا يقتص منه بما فضل من معاصيه على حسناته من لفحةٍ إلى آخر من يخرج من النار ـ على ما صح عن النبي ـ ﷺ ـ بمقدار قلة شره ، وكثرته .

---

(٢٣) إلى هنا من ورقة ٤٣/أ

(٢٤) في الأصل : الثانية ، وهو خطأ .

وقال تعالى : ﴿إن الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات﴾[٢٥] .

وقد صح : أن أهل الأعراف : من أحد هذه الأقسام ، إذ ليس لها رابع : وليسوا ـ بلا شك ـ من الطبقتين اللتين ذكرنا آخراً[٢٦] . فوجب أنهم الطبقة التي ذكرنا أولاً ؛ فإنه لم يبق غيرهم .

وهذه قسمة ضرورية[٢٧] .

تقسيمات أخرى لبعض أصحاب الطبقة الثالثة

ثم رجعنا إلى المؤمنين ، الذين وجب الاقتصاص منهم بالنار ؛ بزيادة شرهم على خيرهم ، فوجدناهم ينقسمون ـ فيما لهم من الخير والشر ـ على أقسام أربعة ، ثم تتشعب ـ هذه الأربعة أقسام ـ على اثني عشر قسماً .

فالأربعة الأول :

كثير الخير ، كثير الشر .

كثير الخير ، قليل الشر .

قليل الخير ، قليل الشر .

---

(٢٥) سورة هود من الآية ١١٦ .

(٢٦) يعني : من رجحت حسناته ، أو سيئاته .

(٢٧) إلى هنا من ورقة ٤٧/ أ

قليل الخير ، كثير الشر .

إلا أن أهل هذه التقسيمات كلهم : قد فاض شرهم ـ وما معهم من الكبائر ـ على خيرهم . وهؤلاء يحتسب لهم ـ بكلية ـ ما مع كل امرىء منهم من الخير ، وبكلية : ما معه من الشر ، إذ لكل ذلك حظ من المراعاة والحساب . فإذا اقتص منه ـ فيما فضل له من الشر ـ حتى يفضل له من الخير شيء ما ، لا أقل منه ، وهو التصديق بالاسلام ، والنطق بذلك مرة واحدة : وقع الخروج حينئذ من النار ، بالشفاعة ، التي رحم الله تعالى بها عباده المؤمنين المسرفين على أنفسهم .

وقد علمنا[٢٨] : أن من عمل من كل أعمال الخير ـ فرضاً وتطوعاً ـ ، ثم قتل النفس ، وعمل من كل الكبائر : فإنه (بالإضافة إلى من لم يعمل شيئاً من الخير ، وشارك في الكبائر : مشاركة المذكور قبله : سواء سواء) أخف عذاباً ، وأقل في النار مكثاً ـ على ما أوجبته النصوص المذكورة ـ وهكذا الحكم في قلة الشر وكثرته مع قلة الخير أو كثرته[٢٩] .

فلنتكلم الآن ـ بعون الله (تعالى) وعصمته ـ في كثير الخير كثير الشر مع قليل الشر كثير الخير : بالإضافة إليه ، فوجدناهما قد استويا في كثرة الخير ، واختلفا في كمية الشر ، يعني في قلته وكثرته .

---

(٢٨) إلى هنا من ورقة ٤٧/ ب

(٢٩) إلى هنا من ورقة ٤٨/ أ

وقد علمنا ـ بتقسيم رسول الله ﷺ في خبره الصادق : من خروج من له مقدار الشعيرة من الخير معا ، ثم خروج من له مقدار البرة من الخير معا ، ثم كذلك سائر المقادير ـ في القلة ـ : أن الخروج من النار لأهل كل مقدار منها ، يكون معاً ـ بلا شك في ذلك ـ وعلمنا (بالنص) : أنهم معاقبون ، ومقتص منهم : فيما كسبوا من الشر . فلم يبق إلا أن الكثير الشر مقدَّمٌ في الدخول في النار على القليل الشر ، بمقدار ما زاد شره على شر الآخر ؛ ليكون خروجهما معاً ، بعد أن يقتص من كل واحد منها بمقدار ما فضل له من الشر على ما معه من الخير .

وليس في الممكن أن يكون دخولها في النار معاً ؛ إذ لا شك في أنه كان يتم الاقتصاص من الأقل شراً قبل تمامه من الأكثر شراً ، فيخرج من النار قبل خروج من له من الخير كالذي له سواء سواء . وهذا خلاف نص الحديث ، اللهم إلا أن يكون[30] وجه آخر ، وهو أن يزاد في كيفية عذاب من هو أكثر شراً ، ويفتَّر من عذاب من هو أقل شراً ، فيكونا قد اتفقا في مدة العذاب ، واختلفا في شدته وتهوينه . فهذا ـ أيضا ـ ممكن ، والله أعلم بأيهما يكون ؛ إلا أنه لا بد من أحد الوجهين ، إذ ما عداهما مخالف لوحي الله تعالى إلى رسوله ﷺ وما خالف الوحي : فهو باطل ـ بلا شك ـ[31] .

---

(٣٠) إلى هنا من ورقة ٥١/أ

(٣١) إلى هنا من ورقة ٥١/ب

ثم نظرنا في قليل الخير قليل الشر مع قليل الخير كثير الشر : فوجدناهما قد استويا في قلة الخير ، واختلفا في كمية الشر ، نعني : في قلته ، وكثرته ، فصح خروجهما من النار معا ، ولا بدّ ، إذ مقدار خيرهما واحد . فإذ ذلك كذلك : فلا بد من تقديم كثير الشر في دخول النار ، إذ مقدار الاقتصاص منه أكثر من مقدار الاقتصاص من الذي هو أقل شراً منه ؛ فيقدَّم عليه بمقدار ما يقتص منه من الزيادة التي تزيد على شر الآخر ضرورة ، ثم يدخل الآخر ليكون خروجهما من النار معاً .

والوجه الآخر ـ كما قدمناه ـ : وهو أن يدخلا النار معاً فيزاد في عذاب الأكثر شراً ، ويفتّر عذاب الأقل شراً ، فينقصان في المدة ، ويختلفان في شدة العذاب وتهوينه ، والله أعلم[٣٢] .

ثم نظرنا في كثير الخير كثير الشر مع قليل الشر قليل الخير ، فوجدناهما قد اختلفا في كمية الشر وكمية الخير . وقد علمنا : أن الأكثر خيراً أسرع خروجاً من النار ، وأن الأكثر شراً أكثر عقوبة ؛ فصح أن الأكثر شراً يقدّم ـ بيقين ـ في الدخول في النار قبل الأقل منه شراً ، وأنه أيضا ـ وإن تقدم في دخول النار ، فإنه المقدم في الخروج منها قبل الآخر ؛ لأنه أكثر منه خيراً ؛ وأن القليل الشر ، وإن تأخر في دخول النار بعد الذي هو أكثر منه شراً ، فإنه ـ أيضا ـ يتأخر في الخروج منها بعده ، لأنه أقل منه خيراً .

(٣٢) إلى هنا من ورقة ٥٣/أ

أو وجه آخر ، وهو : أن يدخلا النار معاً ، ويزاد في عذاب الأكثر شراً ؛ ليستوفى القصاص منه في قليل المدة ؛ فيخرج قبل الذي هو أقل خيراً منه ، ولا بد . ويفتر في عذاب الأقل شراً ، وتطول مدته ، فيكون خروجه منها ، ولا بد ، مع طبقته ، وبعد خروج من هو أكثر خيراً منه ؛ هذا ما لا يمكن سواه أصلاً[٣٣] .

ثم نظرنا في كثير الخير قليل الشر مع قليل الخير كثير الشر : فوجدناهما قد اختلفا في قلة[٣٤] الخير وكثرته ، وفي قلة الشر وكثرته ، فعلمنا يقيناً : أن الأكثر شراً يدخل النار قبل الأقل شراً ، وأنه ـ أيضا ـ يخرج منها .

والوجه الآخر : وهو أن يدخلاً معا في النار ، فيتم القصاص من القليل الشر قبل انتهاء القصاص من الأكثر منه شراً ، فيخرج الأكثر خيراً قبل خروج الأقل خيراً ، ولا بد[٣٥] .

ثم نظرنا في كثير الخير كثير الشر مع قليل الخير كثير الشر : فوجدناهما متفقين في كثرة الشر ، مختلفين في قلة الخير وكثرته ، فالأكثر خيراً مقدم في دخول النار على القليل الخير ، فيتم القصاص منه قبل تمام القصاص من الآخر ، ويخرج من النار ، لكثرة خيره قبل خروج الأقل خيراً ، ولا بد .

والوجه الآخر ، وهو : أن يدخلا النار معاً ، ويزاد في عذاب

---

(٣٣) إلى هنا من ورقة ٥٣/ب

(٣٤) إلى هنا من ورقة ٥٣/ب أيضا

(٣٥) إلى هنا من ورقة ٥٤/أ

الأكثر خيراً ، ويهون على الآخر ؛ ليتم القصاص من الأكثر خيراً قبل تمام القصاص من الآخر ، ليخرج قبله ، ولا بد ؛ لكثرة خيره عليه[٣٦] .

ثم نظرنا في قليل الخير قليل الشر مع كثير الخير قليل الشر : فوجدناهما قد اتفقا في قلة الشرّ ، واختلفا في قلة الخير وكثرته ، فالأكثر خيراً يقدم في الدخول في النار ، وفي الخروج منها .

والوجه الآخر ، وهو : دخولهما معا ، ويزاد - ولا بد - في عذاب الأكثر خيراً ؛ ليتم القصاص منه ، ويخرج - ولا بد - قبل خروج الذي هو أقل خيراً منه[٣٧] .

فحصل من كل هذا : أنه جائز أن يدخل الأكثر شراً في النار - قبل دخول الأقل شراً - إن استوى عذابهما ، فإن أدخلا معا : فلا بد من مضاعفة العذاب [لمن][٣٨] كثر شراً ؛ ليخرج مع من معه من الخير كالذي معه ، أو ليخرج قبل الذي هو أقل خيراً منه ، أو بعد الذي هو أكثر خيراً منه ، ولا بد .

إنما يراعى في الخروج من النار كثرة الخير وقلته فقط - كما جاء النص - ، ويراعى في الشر القصاص فقط : إما بطول المدة . وإما[٣٩] بمضاعفة العذاب ، ولا بد - كما جاء النص (أيضا)

---

(٣٦) إلى هنا من ورقة ٥٤/أ أيضا
(٣٧) إلى هنا من ورقة ٥٤/ب
(٣٨) مطموسة في الأصل ، وقد وضعناها اجتهاداً
(٣٩) إلى هنا من ورقة ٥٦/أ

بقوله (تعالى) : ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم﴾[٤٠] .

إلا أنا تأملنا قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فأتهم عذابا ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ۝ وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾[٤١] فوجدنا فيه دليلاً على صحة الوجه الأول فقط ، وأن الأكثر معاصي يتقدم في النار على طبقة أقل معاصي منه[٤٢] .

ثم نقول : إن أهل الموازين على أربعة أقسام :

فقسم رجحت حسناتهم ، وهؤلاء صنفان ـ في كمية الرجحان ـ ومائتيه :

إما صنف فضل لهم التصديق ، والنطق به : مرة واحدة فقط ، وهم طبقه واحدة . وإما صنف فضل لهم التصديق ، والنطق به : مرة واحدة ، وزيادة خير .

وهؤلاء مختلفون باختلاف الفاضل لهم .

---

(٤٠) سورة المؤمنون/ ١٨

(٤١) سورة الأعراف/ ٣٨ ، ٣٩

(٤٢) إلى هنا من ورقة ٥٦/ ب

وكلا هذين الصنفين في الجنة ، إثر الموازنة ـ بلا فصل ـ إلا جواز الصراط .

والقسم الثاني : من استوت حسناته وسيئاته مع ما معه من الكبائر ، فلم يفضل لهم خير ولا شر ، وهؤلاء أصحاب الأعراف ، ولا بد من مجازاتهم ـ كما رتب الباري ـ عز وجل ـ على شيء من سيئاتهم ، حتى يفضل لهم (بعد سقوط ذلك ، بالجزاء عليه) التصديقُ ، والنطق به : مرة واحدة فقط ، وهو[43] الوقوف بين الجنة والنار ؛ إذ لا يدخل الجنة أحد إلا بايمان ـ كما جاءت النصوص ـ . وهؤلاء طبقة واحدة .

والقسم الثالث : من رجحت سيئاته ، وما معه من الكبائر على حسناته ، وفي جملتها التصديق ، فهؤلاء معاقبون على الفاضل لهم من الشر على ما قابل حسناتهم وإيمانهم من شرهم ، حتى يفضل لهم التصديق والنطق به مرة واحدة ، الذي لا يدخل أحد الجنة إلا به .

وهؤلاء مختلفون في التقدم في دخول النار ، وفي الخروج منها ، وفي شدة العذاب ، وخفته اختلافاً شديداً ـ على ما بيناه قبل ـ . ومن جملة هؤلاء : مؤمن لم يعمل خيراً قط غير الإسلام : اعتقاده ، والقول به مرة واحدة فقط ، فهؤلاء يعاقبون على كل ما سلف لهم حتى يفضل لهم عقد الايمان والنطق به مرة

(٤٣) هكذا في الأصل ، ولعل الصواب : « وهكذا الوقف » . . أي ويفضل لهم الوقوف .

واحدة . وهؤلاء ـ أيضا ـ مختلفون في التقدم في دخول النار ، وفي التأخر في ذلك ، وفي شدة العذاب ، وتهوينه : على مقدار ما لكل واحد من المعاصي : إلا أنهم كلهم مستوون في درجاتهم في الجنة مع أصحاب الأعراف ومع الصنف الذين فضل لهم التصديق والنطق به مرة واحدة فقط : سواء ـ في كل ذلك ـ من تقدم دخوله الجنة (من كل من ذكرنا) ، ومن تأخر دخوله فيها ، كلهم ليس لهم عمل خير فاضل على شر[44] أصلاً : إلا العقد ، والنطق بذلك مرة واحدة ؛ قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة » [قال[45]] : ولا جزاء إلا على عمل برحمة الله ـ تعالى ـ قال الله ـ عز ، وجل ـ : ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾[46] . وقال (تعالى) : ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾[47] ؛ وإنما يتفاضلون بالمسابقة إلى الجنة ، أو بالخلاص من النار ، أو بقلة المكث فيها ، أو بتهوين العذاب على بعض دون بعض ؛ ثم يتفاضل من فضل له على سيئاته عمل ـ قلَّ أو كثر ـ من الخير « على حسب ما عمل من الخير » في الجنة : بعلو الدرجات ، وكثرة النعيم[48] . والقسم الرابع : الكفار ، ولا بد لهم من الموازنة ؛ وقد نص الله ـ تعالى ـ على ذلك في سورة ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ ، في قوله (تعالى) : ﴿ومن خفت موازينه

---

(٤٤) إلى هنا من ورقة ٥٧/ ب

(٤٥) هكذا في الأصل ، ولعلها زيادة من أبي طالب .

(٤٦) سورة النمل ، الآية : ٩٠

(٤٧) سورة الواقعة ، الآية : ٢٤

(٤٨) إلى هنا من ورقة ٥٨/ أ

فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون• تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون• ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون•﴾[49] فصحَّ - بهذه الآية - أن الكفار (أيضا) يوازنون ، وأن موازينهم تخف ؛ لا يجوز غير هذا ؛ لأن من خالف هذا : كان ذلك منه صرفاً للآية عن ظاهرها ، وعن مقتضى لفظها بالدعوى ، وتحريفاً للكلم عن مواضعه بلا برهان ، وهذا لا يجوز .

وأما قوله - عز ، وجل - : ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾[50] : فليس نفياً للموازنة ؛ لأن كلام الله لا يتعارض ، وإنما هو : أنه لا تثقل موازينهم ، بل تخفُّ ؛ إذ ليس فيها التصديق الذي هو العقد والقول الذي لا يصحُّ عملٌ صالح إلا به . إلا أنهم يختلفون في مقدار المعاصي ، وفي كيفية العذاب : في شدته ، ونقصانه - على حسب معاصيهم - ، مخلدون في النار أبداً ، ولا يجازون بما لم يعملوا ، ولا كانوا سببا لعمله ؛ ففي هذا يتفاضلون في العذاب . وقد بين الله - عز ، وجل - [هذا][51] بقوله : ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾[52] ، والأسفل - بلا شك - من باب الإضافة[53] ، ويقتضي - ولا بد ،

---

(٤٩) سورة المؤمنون/ ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧

(٥٠) سورة الكهف ، الآية : ١٠٥

(٥١) زيادة يقتضيها السياق

(٥٢) سورة النساء ، الآية : ١٤٥

(٥٣) قارن بما كتبه ابن حزم في التقريب ص ٥٨ - ٦١ وإلى هنا من ورقة ٦٢/ أ

أعلى منه في نوعه . وأخبر رسول الله - ﷺ - بما خفف عن أبي طالب : بأنه لم يؤذ قط رسول الله ﷺ .

وأما اعمالهم الصالحة : فمحبطة - بنص القرآن - ، لا يجازون عليها في الآخرة أصلاً ؛ قال الله (تعالى) : ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾(٥٤) ، ولا بد من الموازنة لكل أحد من الأنبياء ، والرسل ، والمؤمنين التائبين ، والمصرين ، والكفار .

وليس الغفران للأنبياء - عليهم السلام - والتائبين من المؤمنين بمانع من الموازنة لهم ؛ لأنهم - بلا شك - متفاضلون في الأعمال الصالحة وفي الفضائل ؛ والموازنة إنما هي توقيف لهم على ما جعله الله تعالى جزاءً لهم على تلك الأعمال الفاضلة ، فيعلم كل امرىء منهم ما يستحق في الجنة من الجزاء على أعماله الصالحة ، ويعلم أهل النار - أيضا - مقدار ما يستحقه كل امرىء منهم في النار من الجزاء على أعماله الخبيثة مع كفره فقط(٥٥) .

فهم - كما أوردنا - ست طبقات :

أهل النار المخلدون فيها ، وهم الكفار ، وهم المشركون : طبقة يتفاضلون في العذاب بمقدار ما عمل كل امرىء منهم من الشر .

---

(٥٤) سورة الفرقان ، الآية : ٢٣

(٥٥) إلى هنا من ورقة ٦٣/أ

ثم أهل الجنة خمس طبقات :

الأولى : من ثقلت موازينه ؛ فرجحت حسناته على معاصيه ـ بما قل ، أو كثر ـ ، فهؤلاء يتفاضلون في درجات الجنة ، والعلو فيها ، وفي كثرة النعيم : بمقدار ما فضل لكل واحد منهم من الأعمال الصالحة ، وهؤلاء خمس طبقات ـ على ما نبين بعد هذا ـ .

ثم أربع طبقات كلهم في الجنة سواء في الدرجات ، وفي النعيم ، لا فضل لأحد منهم على سائرهم في شيء من ذلك ، ولكل امرىء منهم مثل الدنيا وما فيها عشر مرات ـ كما صح عن النبي ـ ﷺ ـ من طريق أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ .

وهم من فضل له التصديق بالاسلام ، والنطق به مرة واحدة على ما معه من المعاصي .

ومن لم يفضل له شيء : فإنما استوت حسناته وسيئاته[٥٦] . فوقفوا بين الجنة والنار حتى فضل لهم التصديق والنطق به مرة واحدة ، وهم أهل الاعراف .

وهاتان الطبقتان : لا تعذبان بالنار أصلاً .

ومن فضلت له معصية ـ على كل ما معه من الخير ـ ، ومن لم يعمل خيراً قط غير التصديق بالإسلام والنطق به مرة واحدة فقط .

---

(٥٦) إلى هنا من ورقة ٧١/ أ

وهاتان الطبقتان هما المجازيتان[٥٧] بالنار :

إحداهما : على ما فضل لها من المعاصي على ما كان لها من خير ، وهي الخارجة من النار بالشفاعة (المتقدمة) في الخروج : على مقدار تفاضلها فيما عملت من الخير الذي قد سقط تفضيله بمقابلة معاصيهم له .

والثانية : على ما عملت من الشر ، وهي الخارجة من النار ـ برحمة الله (تعالى) ، لا بالشفاعة ـ ، وهي آخر من يخرج من النار .

وكل هذه الطبقات[٥٨] الأربع : لم يفضل لها شيء غير التصديق بدين الإسلام ، والنطق به مرة واحدة فقط .

فتبارك الله الذي كل أحكامه عدل وقسط ـ لا إله إلا هو ـ ، المتفضل (مع ذلك) بما لا يبلغه فهم ، ولا وصف ، ولا شكر ، نسأل الله أن يجيرنا من النار ، ومن روعات يوم القيامة ـ بمنه ـ آمين ، وأن ييسرنا لأعمال الطاعة المنجية من كل ذلك ، آمين[٥٩] .

والطبقة ، التي فضلت لها أعمال خير ، تتفاضل بها درجاتهم في الجنة : هم ـ أيضا ـ طبقات خمس :

---

(٥٧) في الأصل : المجازاتان

(٥٨) في الأصل : هذه الطباق

(٥٩) إلى هنا من ورقة ٧١/ب

فأولها : بعد النبيين - عليهم السلام - من أدى جميع الفرايض[٦٠] ، وتطوع بخير كثير (مع ذلك) واجتنب جميع الكبائر ، وقلل من جميع السيئات ، إذ لا سبيل إلى أن ينجو أحد من السيئات ، أو من الهمّ بها - كما صح عن النبي ﷺ إذ قال : ولا يحيى بن زكريا - .

ثم الثانية : من أدى جميع الفرايض ، ولم يتطوع بزيادة خير ، واجتنب جميع الكبائر ، واستكثر مما دون ذلك من السيئات ، أو استقل .

ثم الثالثة : من أدى الفرايض ، واجتنب الكبائر ، وعمل تطوعاً ، وسيئات .

ثم الرابعة : من أدى الفرايض ، وتطوع ، أو لم يتطوع ، وعمل كبائر وسيئات ، ثم تاب من بعد ذلك قبل الموت ، أو أقيم عليه الحدود فيما عمل من ذلك .

ثم الخامسة : من أدى الفرايض ، وقصرّ في بعضها ، وتطوَّعَ ، وعمل كبائر وسيئات ، ومات مصراً : إلا أن خيره رجح في الميزان على معاصيه ، ولو بتكبيرة ، أو بحسنة همَّ بها ولم يعملها ، أو شوكةٍ أزالها من الطريق ، أو غير ذلك : من مقدار الذرة ، فصاعداً .

---

(٦٠) إلى هنا من ورقة ٧٣/أ

كل هذامسطور في نصوص القرآن ، والمسند الثابت عن رسول الله ﷺ .

ومعلوم انقسام الناس بضرورة المشاهدة[٦١] .

فإن قال قائل : فإذ الأمر هكذا : فما فائدة الشفاعة إذاً ـ والجزاء واقع على كل دقيق وجليل : من خير وشرٍّ لم يتبْ عنه فاعله ؟

قلنا ـ وبالله (تعالى) التوفيق ـ : وقوع الجزاء ـ على ما ذكرنا من مراتبه ـ : هو فائدة الشفاعة بنصّ بيان رسول الله ـ ﷺ ـ ، فذلك في الخبر الذي أوردنا قبل ، ولولا تفضل الله ـ تعالى ـ بالشفاعة وقبولها لكان له ـ عز وجل ـ أن يخلدنا على سيئة واحدة في النار ، ولولا رحمته : بأن جعل الجنة جزاء لنا على قليل طاعتنا وعملنا ـ كما قال تعالى : ﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾[٦٢] ـ : لكان له ـ عز وجل ـ : أن لا يدخلنا الجنة ، إذ ليس لأحد عليه ـ تعالى ـ حجة ولا حق ، بل له المنّ على الجميع . لا إله إلا هو .

وصح بهذا : معنى قول رسول الله ـ ﷺ ـ : إنه لا ينجي أحداً عملُه ، فقيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ .

---

(٦١) إلى هنا من ورقة ٧٣/ ب

(٦٢) سورة الأعراف ، الآية : ٤٣

قال : ولا أنا : إلا أن يتغمدني الله برحمته . . أوكما[٦٣] قال ـ عليه السلام[٦٤] .

فإن قيل : فقد يجازون بما فضل لهم من الشر على ما مع كل امرىء منهم من الخير ، ويسقط لكل واحد منهم ما عمل من المعاصي ما قابل ما معه من الخير: فلا شكٌ في أنه قدسقط كل خير عمل : من تصديق ، ومن سائر الأعمال ، كما سقط ما قابل ذلك الخير من معاصيه ، فكيف تراعى له المقادير المذكورة من مثقال برة وشعيرة وخردلة وغير ذلك ؟ .

قلنا : وبالله (تعالى) التوفيق ـ : انه بقي له أنه قد عمل خيراً ، فتفضل الله ـ عز وجل ـ عليهم[٦٥] : بأن جعلهم عملوا خيراً ، وبأنهم تفاضلوا فيما عملوا من الخير سبباً إلى قبول الشفاعة فيهم ، وإلى تقدمهم في إخراجهم من النار على مراتب ما كان لكل واحد منهم من عمل الخير جملة فقط ؛ وأخَّرَ ـ تعالى ـ من لم يعمل خيراً قط : غير التصديق بدين الإسلام والنطق به مرة فقط ؛ فلم يجعل له حظاً في الشفاعة ، ولا في التقدم في الخروج من النار ، وتوحد هو ـ عز وجل ـ بإخراجه من النار بعد كل من يخرج منها .

---

(٦٣) إلى هنا من ورقة ٧٦/ ب

(٦٤) إلى هنا من ورقة ٧٧/ أ

(٦٥) إلى هنا من ورقة ٧٩/ أ